International Journal of Humanities & Social Sciences
Volume (4) – June 2018 SJIF Impact Factor 3.38
ISSN1858-838
المجلة الدولية للعلوم الانسانية والاجتماعية
العدد الرابع-ابريل 2018

الأسبابُ الجَلِيَّة والدوافعُ الخفية في تقعيد القواعد النحويَّة

د. محمد الطيب البشير بابكر – جامعة الخرطوم ـ كلية التربية ـ قسم اللُّغة العربية

المستخلص :

يُعد النحو العربيّ صرحاً شامخاً وصنيعاً عظيماً ومن أكثر العلوم الإنسانية اتقاناً ؛ ولمَّا كان علمُ النحو العربيّ كذلك رأيْنا أنْ نبحثَ في أسابِ وضعه ودوافعِ صناعته فكانتْ هذه الورقة التي بين أيديكم . هدفتْ الدراسة إلى التعرف على الأسباب التي دفعت بنحاة العربية إلى وضع النحو العربيّ ، كما هدفتْ إلى بيان الدوافع التي حدتْ بالنحاة إلى تقعيد القواعد النحوية ، ومن أهداف الدراسة ـ كذلك ـ ضرورة التمييز بين الأسباب والدوافع التي وقفت وراء هذه الصناعة النحوية . اتَّبعَ الباحثُ في هذه الدراسة المنهج الوصفيّ ؛ لأنَّه المنهج الأنسب في مثل هذه الموضوعات . هذا ، وقد توصلتْ الدراسةُ لجملة من النتائج وإنّي لموجزها على النحو التالي : تنوعتْ الأسباب وتباينتْ الدوافع حول وضع النحو العربيّ ، اللَّحنُ هو أكبر الأسباب التي أدَّتْ إلى وضع النحو العربيّ ، المادة اللُّغوية التي جُمعتْ من بوادي نجد والحجاز وتهامة هي أقوى الدوافع التي دفعتْ بنحاة العربية إلى تقعيد القواعد النحوية ويلي هذا الدافع رقي العقل العربيّ ، العصبية العربية صفة اكتسبها العرب من الإبل ، وأخيراً ازدراء العرب للأعاجم وتعصب العرب للغتهم صفتان متناقضتان ولكنهما عملتا جنباً لجنب في خدمة النحو العربيّ .

الكلمات المفتاحية :

السبب, الدافع, القواعد النحوية.

Abstract

Arabic grammar is considered as a monumental monument, a great workmanship and one of the most powerful human sciences. For its significance the researcher decides to study the reasons behind its motives and construction on this paper in your hands. The aim of the study was to identify the reasons that led the Arabic grammarians to develop the Arabic grammar, and to explain the motives that led to the establishment of the rules of arabic grammar. The study aimed to distinguish between the reasons and motives behind this grammatical construction. The researcher followed the descriptive approach in this study because it is the most appropriate approach in such subjects. The study reached a number of conclusions that we summarize as follows: The reasons and motives varied for the of Arabic grammar setting. The melody is the biggest reason that led to the setting of Arabic grammar. The linguistic material that collected from suburbs of Wadi Najd, Hijaz and Tihama is the most powerful motive that led the Arab grammarians to step up grammatical rules. This motive is followed by the advancement of the Arab mind. The Arabic extremism is a quality acquired by the Arabs from camels and finally the contempt of the Arabs for the non-arab and the Arab fanaticism for their language are contradictory qualities, but they worked side by side in the service of Arabic grammar.

المقدمة :

الشعبُ العربيُّ هو الشعبُ الذي قطن شبه جزيرة العرب منذ قرون موغلة في القدم لا يُدرك مداها البعيد . وقد اتفق العلماء على أنَّ هذا الشعب من الشعوب السامية التي كونت سكان الشرق الأوسط الحديث منذ أن عُرف الماضي التاريخي لهذه المنطقة. كما لاحظ علماء اللُّغة أنَّ هنالك صفات مشتركة تطبعت عليها تلك الشعوب السامية ؛ إذ تشترك في نظمها السياسية وتقاليدها الاجتماعية وخصائصها اللغوية ، إضافة إلى وجود قاسم مشترك كبير بين لغاتها ، الأمر الذي دلَّ على انحدارها من لغةٍ أمٍّ عالية ، ومن تلك اللغات : العربية والعبرية والسريانية والأشورية والبابلية والكنعانية والأكادية والفينقية والآرامية والحبشية والنبطية ولهجات اليمن الجنوبية . وكما ذكرتُ أنَّ علماء اللغة ذهبوا إلى أنَّ هذه اللغة تشكل أسرة واحدة ؛ لأنها تشترك أو تتقارب في جذور الأفعال وتصاريفها وفي أصول المفردات والضمائر والكلمات التي تدل على القرابة الدموية ، وفي أسماء أعضاء الجسم والأعداد ، وفي تأليف معظم أفعالها من أصول ثلاثية إلى غيرها من الصفات وبتلك الصفات السابقة تقرر أنَّ العربية هي إحدى اللُّغات السامية ، ليس هذا فحسب بل هنالك بعض الآراء قررت أنَّها أقرب اللغات السامية إلى اللغة السامية الأم . هذا ، وقد أُطلق على هذه الجماعة التي تتكلم العربية اسم (العرب) ، وينقسمون إلى قسمين : عرب بائدة وهي التي بادت واندثرت كعاد وثمود ، وعرب باقية وينقسمون إلى قسمين : عرب عاربة وجدهم الأعلى قحطان وكانت منازلهم في الجهات الجنوبية ، وعرب مستعربة وجدهم الأعلى عدنان وكانت منازلهم في الجهات الشمالية من شبه جزيرتهم العربية.[5] فكانت للصفات الجغرافية التي أُتصفتْ بها بلاد العرب أثر كبير في حياة العرب وعاداتهم ومعيشتهم وتنظيمهم الاجتماعي . فجزيرةُ العرب بأرضها الوعرة وسمائها الشحيحة وجبالها العالية وهضابها المرتفعة ورمالها الملتوية وصحاريها القاحلة وشمسها المحرقة ورياحها العاصفة وإبلها الأليفة وخيولها السريعة وسيوفها القاطعة وحروبها الطاحنة شكلتْ إنسانها العربي ، بصفاته وطباعه ، والتي في مقدمتها السخاء والنجدة والعفة والإقدام والشجاعة والبأس والأنفة وحماية الجار

والخوف من العار والحنين إلى الأوطان ومنازلة الأقران والحلم والخطابة والفصاحة والبيان .أمَّا خصائصهم في البيان فقد كانوا أحق به ، أذهانٌ حديدية ، وحفظٌ لكل مسموعٍ واعتبار بكل محسوس ، طباعٌ صافية وسلائق فصيحة وألسنة زلقة إلى عارضة رشيدة ، وبداهة شديدة ، واستحواذ على جيد الكلام ، فكلامهم السبك الحسن والديباجة الكريمة والرونق العجيب والماء الجم والطابع الفصيح ، ولهم أصناف البلاغة قصيداً ورجزاً وخطبا ، منثوراً وسجعا ، وما يزدوج وما لا يزدوج ، مع إصابة الغرض وتطبيق المفصل بديهة وارتجالا ، من غير معاناةٍ ولا إجالة فكر ولا استعانة ، فكأنهم ينطقون من وحي وإلهام . [7] حقاً إنَّ العرب كانوا أهل فصاحة وبيان ، بلغوا فيهما من الشأو البعيد ما بلغوا ؛ ولعلَّ مما ساعدهم على ذلك طبيعة لغتهم وصفاء قريحتهم وسرعة بديهتهم وطبيعة بيئتهم ، فكانوا أكثر قدرة على التعبير ، فملكوا زمام البيان ، فغدا وسماً توسموه وموروثاً وَرِثُوه وورَّثُوه جيلاً بعد جيل . ولما استحسنت العرب الفصاحة والبيان أخذت في إرسال أبنائها إلى البادية ، رغم قسوة الحياة فيها وجلافة أهلها وكثرة الجفاف والجوع فيها . وفي ذلك يروى أنه قيل لأعرابي من أهل البادية ـــ وكان قد خرج منها ـــ أترجع إلى البادية ؟ فقال : أما ما دام السعدان مستلقيا فلا . يريد أنه لا يرجع إلى البادية أبدا ، كما أنَّ السعدان لا يزول عن الاستلقاء أبداً . [14] وفي ذلك دليلٌ على قسوتها ، وإنَّه مع ما فيها من قسوة وشدة لم يتوقف العرب ولم يتباطأوا ولم يترددوا في أمر إرسال أبنائهم إلى البادية . وقد أُرْسِلَ النبيُّ محمد صلى الله عليه وسلم إلى بادية بني سعد . [10] وهنالك رضع اللغة مع لبان الأمومة الأولى . واستمرتْ العربُ ترسل أبناءها إلى البادية في عصرين تاليين للعصر الجاهلي ، فهذا هو الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان يقول : " أضرَّ بالوليد حبُنا له فلم نوجهه إلى البادية " . [4] ؛ لذلك كان كثير اللحن . إذاً البادية هي منبعُ الفصاحة ، وموطنٌ لسلامة اللسان وصفاء الذهن وجودة القريحة ؛ لذلك كانت وجهة تيممها الناس في الجاهلية والإسلام ، فنشأ ناشئهم وهو يتطلع إلى بلوغ الغاية في الفصاحة والبيان اللذين بهما توجز الألفاظ وتشبع المعاني ؛ لذلك كثيراً ما نجد في كتب التراث بسط الكلام عن فصاحة العرب وقوة حجتهم وشهرتهم في البيان ، ولباقتهم فيما

ينطق به اللسان . وبعدُ ، فأيُّ شيءٍ أشهرُ منقبةً ؟ وأرفعُ درجةً ؟ وأكملُ فضلاً من فصاحة اللسان وجمال البيان ؟! وظل العرب على هذا الحال من الفصاحة والبيان إلى أن تسرب اللحنُ إليهم . وضع النحاةُ القواعد النحوية ، إلا أنَّ هذا الوضع لم يتم بين عشية وضحاها وإنّما احتاجت ـ القواعد ـ إلى قرنٍ من الزمان بل وبعد القرن عقود وسنين . كما لم يتم الوضع من قبل رجل أو رجلين أو ثلاثة بل احتاج الوضعُ إلى عشرات الرجال على أقل تقدير ، وهؤلاء الرجال لم يكونوا بمنأى عن بعضهم بل شكلوا سلسلة متواصلة يمثل كل رجل منهم حلقة من حلقاتها ، فاستفاد السابق من اللاحق حتى تمَّ بفضلهم تشييد صرح النحو العتيق . تلك السلسلة ابتدأت بأبي الأسود الدؤلي وتلامذته النجباء أمثال ابنه عطاء ، وعبد الرحمن بن هرمز وعنبسة بن معدان الفيل ويحيى بن يعمر العدواني ونصر بن عاصم ، ثم تلا هذه الطبقة أبو عمرو بن العلاء مقرئ البصرة وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، مروراً بعيسى بن عمر الثقفي ويونس بن حبيب وأبو الخطاب الأخفش الكبير ، وصولاً إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه وقرينه الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة ونظيرهما الكسائي علي بن حمزة أحد قراء الكوفة الثلاثة وتلميذه الفراء وتتابعت سلسلة النحاة الواضعين فلو ذهبنا إلى حصرها وتعدادها لطال بنا السرد لذا نكتفي بهؤلاء عزوفا عن الإطالة ورغبة في الإيجاز . هؤلاء الرجال السابقين حملهم على تقعيد النحو العربيّ جملة أسباب ودوافع منها البيّن الواضح ومنها الغامض الخفي ولينا توضيح ذلك فيما يلي من صفحات قبل أن يجف مداد هذه الورقة والله المستعان وعليه التكلان .

أهمية الدراسة :

تكمن أهمية الدراسة في أهمية النحو العربي وبمعرفة أسباب وضعه ودوافعه نتمكن من التعرف على أهدافه وغاياته وبهذا يتسنى لنا الاستفادة منه على الوجه الصحيح الذي قصده الواضعون الأوائل من أعلام النحاة .

مشكلة الدراسة :

تتمثل مشكلة الدراسة في التفريق بين السبب والدافع ، كما تتمثل مشكلة الدراسة ـ كذلك ـ في أن الكتب والمراجع التي تتعلق بموضوع النحو العربي لم تحصر الأسباب والدوافع حصراً دقيقا فذكرت بعض الأسباب والدوافع وأغفلت بعضها الأخر ، وعليه عملت هذه الورقة على معالجة تلك المشكلة بالبحث في كل ما حمل النحاة على البحث في لغة العرب لوضع قانون لها يُمكن اللساني من محاكاة العرب في كلامهم وبقوالبهم وأساليبهم ونهجهم .

أهداف الدراسة :

هدفت الدراسة إلى التعرف على الأسباب التي دفعتْ بنحاة العربية إلى وضع النحو العربي ، كما هدفتْ إلى بيان الدوافع التي حدتْ بالنحاة إلى تقعيد القواعد النحوية ، ومن أهداف الدراسة ـ كذلك ـ ضرورة التمييز بين الأسباب والدوافع التي وقفتْ وراء هذه الصناعة النحوية .

منهج الدراسة :

اتَّبعَ الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي ؛ لأنَّه الأنسب في مثل هذه الموضوعات .

أولاً : ظهور اللَّحن :

قديماً كانت العصبية هي السمة الغالبة على عرب الجزيرة ، لا سيَّما أهل الحجاز منهم ، وقد أُكتسبتْ هذه العصبية من التوحش المأخوذ من رعاية الإبل وطبيعة البيئة ، هذه العصبية جعلت العرب يفتخرون بأنسابهم ويبتعدون عن مخالطة الأعاجم اعتزازاً بأصلهم ، يقول ابن خلدون : " فلا ينزع إليهم أحدٌ من الأمم أنْ يساهمهم في حالهم... فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها " . [20] لذلك كان من الطبيعي أن تسلم ألسنتهم من الزيغ والانحراف

واستمر حالهم على سلامة ألسنتهم ردحاً من الزمان إلى أن جاء الإسلام وعمت الفتوحات ومُصرتْ الأمصار ودانت بلاد العجم للعرب وحدث الامتزاج ، حينها بدأ اللحنُ يشوب ألسنة العرب العامة منهم والخاصة ، هذا إضافة إلى لحن الأعاجم . وأول لحن سمع بالبادية (هذه عصاتي) ، وأول لحن سمع بالعراق (حيّ على الفلاح) بكسر لفظة (حيّ) . [4] واللحنُ في اللغة الأصوات المصوغة الموضوعة ، وجمعه ألحان ولحون ، وفي الحديث " إقرأوا القرآن بلحون العرب " . [19] وهو ألحنُ الناس إذا كان أحسنهم قراءة أو غناء ، واللحنُ ترك الصواب في القراءة ، واللحن الفطنة ، واللَحَنُ بالتحريك ــ أيضا ــ اللُّغة.[15] إذا اللحن من الآضاد . وجاء في اتفاق المباني وافتراق المعاني : "يُقالُ للخطأ لحن وللصواب لحن ، فأمَّا كون اللحن على معنى الخطأ فلا يُحتاج فيه إلى شاهد ، وأمَّا كونه على معنى الصواب فشاهده قوله تعالى : (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول...." . (محمد ، 30) (1) (2) . وهنالك بعض البوادر التي تشير إلى قدم اللحن إلا أنَّه لم يبلغ حد الظاهرة ، فبعض المصادر تُرجع اللحن إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم ، وقد أورد ابن جني في خصائصه أن رجلاً لحن في كلامه في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "أرشدوا أخاكم فإنه قد ضلَّ" . [9]...فسمي اللحن ضلالا.[8] وفي هذا إشارة إلى أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان مدركاً لخطورة اللحن بدليل أنه أمر بأن يُرشد الذي لحن في حضرته ، وفي ذات السياق قيل : "مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوم يرمون نبالاً فعاب عليهم فقالوا يا أمير المؤمنين إنَّا قومٌ متعلمين ، فقال : لحنكم علينا أشدُّ من سوء رميكم ، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "رحمَ اللهُ امرأً أصلحَ من لسانِهِ" . [18] وفي هذا دليلٌ آخر على إدارك النبي صلوات ربي وسلامه عليه بخطورة اللحن وإقدامه على علاج هذه البوادر في بواكير عهدها . بل ذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبعد من ذلك في عدم التساهل مع هذه الظاهرة ومن ذلك : "أن أحد ولاة عمر رضي الله تعالى عنه كتب إليه كتاباً لحن فيه ، فكتب إليه عمر : أنْ قنِّع كاتبك سوطا" . [8] . ففطن عمر حقيقة الأمر وانتهج نهج نبيه صلوات ربي وسلامه عليه في علاجها مع اختلافٍ

في الأسلوب المستخدم والذي تغلب عليه الشدة . وفي هذا دليلٌ على وجود استعداد عقلي عربي مبكر لملاحظة ومعالجة البوادر التي من شأنها إحداث أثرٍ سالب على المجتمع إذا ما تمَّ إغفالها وظلت هذه الظاهرة حبلى تكبر وتنمو وتزداد شيئاً فشيئا مع الأيام إلى أنْ طالت كتاب الله تعالى ، وأحسب أنَّ هذا هو غاية ما يتخوف منه عمر رضي الله تعالى عنه والنبي صلوات ربي وسلامه عليه من قبله ، ومن ذلك قصة الأعرابي الذي أقرأه المقرئ : (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم). (التوبة ، 3) (1) بجر لفظة (رسول) عطفاً على لفظة (المشركين) وبناء على ذلك قال الأعرابي : برئتُ من رسول الله ، فأنكر ذلك عليٌّ عليه السلام . (8) ثم تحقق من الأمر فأدرك أنْ السبب في ذلك هو لحن المقرئ . ومن هنا يتبين لنا عملياً خطورة هذه الظاهرة . ولنا أنْ نعجب من فطنة مَنْ يتصدون لها ، بالإنكار حيناً وبالتوجيه حيناً وبوضع حلٍ لها حيناً آخر . وهكذا ازداد اللحن كلما تقدم الزمن حتى بلغ من أمره أن شاع بين خاصة العرب من خلفاء بني أمية وولاتهم وعلمائهم أمثال الحسن البصري والحجاج بن يوسف الذي لحَّنه يحيى بن يعمر (21) في قوله تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) . (التوبة ،24) (1) حين رفع كلمة (أحبّ) . ولكن كثرة المعطوفات على المرفوع جعلته يتوهم أنَّ اللفظة ـ التي هي موضع اللحن ـ مرفوعة ، هذا مع العلم بمكانته وعلو كعبه في جانب الفصاحة والبيان . وهنا يمكن القول إنَّ الظاهرة بتسربها إلى ألسنة الخاصة قد انتقلت إلى طورٍ جديدٍ يمكن وسمها فيه بالمهدد الخطير لسلامة اللسان العربي. وبعد أنْ شملَ اللحنُ هذه الطبقة أصبح وباءً مستفحلاً ومؤشراً خطيراً يهدد سلامة اللغة ، فكان ضربة لازم أن يُنظر في هذه الظاهرة ، وكان الإمام علي رضي الله عنه هو العلم المفكر ومدينة العلم وصاحب القرار ، فطلب من أبي الأسود الدؤلي أن يضع حلولا لتلك المشكلة ، [13] مشكلة الانحراف اللساني

والتي اصطلحنا عليها بـ (اللَّحن) ، وذلك بوضع علم النحو العربي ؛ حتى يسلم القرآن من الخطأ وتسلم معه سنة النبي صلوات ربي وسلامه عليه ؛ ولكيلا تصير اللُّغة العربية الفصيحة السليمة نسياً منسيا أو طللاً مهجورا أو هباءً منثورا . وأحسب فيما أحسب أن في علاج مثل هذه الظاهر وجه من أوجه حفظ الله تعالى لكتابه الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه . وعليه يمكن أنْ نعدَّ (اللَّحن) أوَّل الأسباب الجلية التي أدَّتْ إلى تقعيد القواعد النحوية .

ثانياً : حفظ القرآن الكريم من الخطأ :

وقد ذكرتْ الكثير المصادر العديد من الروايات التي بينتْ تسربَ اللحن إلى القرآن والخطأ في قراءته من الأعاجم والأعراب ، ومن ذلك الخطأ الذي وقع فيه الحجاج بن يوسف كما أسلفتُ ، وأخطأ الحسن البصري في قوله تعالى : (ص والقرآن ذي الذكر) (ص ، 1) (1) فقد قرأها بضم لفظة (قرآن) ، وأخطأ أيضاً في قوله تعالى : (وما تنزلت به الشياطين) . (الشعراء ، 210) (1) فقرأها (الشياطون) .(4) وفي هذا دليلٌ على تسرب الظاهرة إلى كتاب الله تعالى وما يزيد الأمر خطورة أنَّ هذا الخطأ وقع فيه حتى الخاصة ؛ فهيأ اللهُ تعالى مَنْ يتصدى لهذا اللحن ويتتبعه في حذق واهتمام تنزيهاً لكتابه وتصديقاً لقوله : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (الحجر ، 9) (1). وهذا من الأسباب الجلية التي حملت النحاة إلى تقعيد القواعد النحوية .

ثالثاً : حفظ سنة النبيّ المصطفى من الخطأ :

وبما أنَّ القرآن الكريم قد تعرَّض للحن في قراءته فمن باب أولى أن تكون السنة النبوية أكثر عرضة له ، خصوصا وأنَّ هذا الأمر حدث في القرن الأوَّل من هجرة النبي صلوات ربي وسلامه عليه فهو ـ كما يعلم الجميع ـ خير القرون ؛ إذ كانت فيه النزعة الدينية من القوة بمكان ؛ لذا من الطبيعي أن تكون سُنَّة خاتم النبيين وسيد المرسلين محل اهتمام

العلماء آنذاك جمعاً وتدويناً وتحرياً وتثبتاً فمن أوجه خدمة السنة النبوية أن يوضع النحو العربي صيانة لها من الخطأ وتذليلا لفهمها فهما صحيحا . وهذا ـ كذلك ـ من الأسباب الجليَّة التي دفعت بنحاة العربية إلى تقعيد القواعد النحوية.

رابعاً : العصبية العربية :

إنَّ العربَ أكثرُ الأممِ تعصباً لجنسهم ولغتهم لذلك لم يرتضوا ما تعرضت له ألسنتهم وألسنة أبنائهم من الانحراف ؛ إذ أنَّ العربية عندهم محل عزٍّ وافتخار ، يقول الطنطاوي : "أهابت العصبية العربية بالعلماء في الصدر الأول الإسلامي أنْ يصدوا هذا السيل الجارف الذي كاد يكتسح اللغة العربية بما قذف فيها من لحن تسربت عدواه إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة بما هدوا إليه وسموه علم النحو" [22] . فكما كان الحفاظ على القرآن الكريم والسنة النبوية من اللحن سبباً جليّاً حمل النحاة إلى تقعيد القواعد النحوية أي غيرة دينية وواجباً يُحتِّمه الإسلام فإنَّ العصبية العربية ـ كذلك ـ كانت دافعاً اجتماعياً حدا بالحكام ـ كعلي رضي الله تعالى عنه ـ وبالخاصة ـ كأبي الأسود الدؤلي والحجاج بن يوسف وغيرهم ـ إلى الشروع في خدمة العربية بوضع القواعد النحوية . وعليه يمكن أن نعدَّ العصبية العربية دافعاً خفياً حمل العرب إلى الشروع في وضع القواعد النحوية .

خامساً : رقيّ العقل العربيّ :

لم يُعرف للعرب بحوثٌ علمية قط قبل الإسلام ، لا مكتوبة ولا مفرَغة حتى في قالب أنظارهم ، حتى عرَّفهم الإسلام على حضارات الأمم الأخرى فأثروا وتأثروا بهم وتأثرهم بالثقافات الأخرى لا يحطُّ من شأنهم ؛ لأنَّ الأمة إذا أرادت التحضر والتقدم تبدأ من حيث انتهت الأمم الأخرى ، لذلك نما العقل العربي ونمت طاقته الذهنية نمواً أعدَّه للنهوض ؛ فرصد كل الظواهر اللُّغوية ، وسجل الرسوم النحوية تسجيلاً منظما متقناً اطردت فيه القواعد وانتظمت فيه الأقيسة ممَّا أدى إلى تقعيد علم النحو . [16] فتحولتْ العقلية العربية من البساطة والسذاجة التي كانت تغلب على العرب في

جزيرتهم قبل الإسلام إلى عقلية متفتحة متطلعة وذلك نتيجة لانفتاحهم ـ بعد خروجهم من جزيرتهم ـ على حضارات وثقافات الأمم الأخرى كثقافة فارس وغيرها بسبب الفتوحات الإسلامية ، ليس هذا فحسب بل كذلك كثرة اختلاطهم بمَنْ قصدهم من الأعاجم أدى إلى تطور ورقي العقل العربي هذا التطور جعل العقل العربي على استعداد تام للتأليف وتأسيس العلوم والتأليف فيها لا علم النحو ـ وحده ـ فحسب وإنّما في سائر العلوم . وعليه يمكن أن نجعل من رقي العقل العربي دافعاً خفياً حدا بالنحاة إلى تقعيد القواعد النحوية .

سادساً : جمع المادة اللُّغوية :

لعلَّ رحيل العلماء وكبار الأُدباء إلى البادية ووقوفهم عند كلام العرب وفهمه وتدوينه كان دافعاً خفياً في وضع النحو العربي ، ويبدوا أن هذا الدافع هو الاستماع إلى كلام الأعراب ، قال الجاحظ : " إنَّه ليس في الأرض كلامٌ هو أمتع ولا آنق ولا ألذّ في الأسماع ولا أشدّ اتصالاً بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء والعلماء البلغاء"[4] . ويمكن القول إنَّ ذات الأسباب التي أوردناها عن تقعيد النحو يمكن أنْ تكون أسباباً أدَّت إلى ذهاب هؤلاء لجمع اللغة من البادية ، ومنهم أبو عمرو بن العلاء الذي كان أعلم الناس بالعرب والعربية ، ولم يكن يدون ما يسمعه فحسب بل كان يسأل عن علله .[8] ومنهم الخليل بن أحمد الفراهيدي وهو أول من صنف في جمع اللغة بتأليفه كتاب العين .[17] وتبعه سيبويه في الأخذ عن الأعراب حيث نجده كثيراً ما يقول في كتابه : "واعلم أن العرب يقولون"[11] ، ومنهم الأصمعي الذي ملأ الدنيا علماً بمروياته عن الأعراب الفصحاء . [17] ومنهم أبو حاتم السجستاني الذي كثيراً ما نسمع عنه يروي عن تلك المرأة البدوية المعروفة بأم الهيثم ، ونهج نهجهم من الخلف كثير . هذا ، ولم تقف مجهودات هؤلاء العلماء في الاستماع و التدوين وفك طلاسم الغريب بل تحروا وتأكدوا من صدق من أخذوا عنهم اللغة وعلى رأس هؤلاء الخليل الذي قال : "إنَّ النحارير منهم ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللبس والتعنيت"[12] . ومهما يكن من أسباب جمع اللغة وذهاب العلماء للبادية

والسماع عن الأعراب والتحري في الأخذ عنهم فإنَّ جمع اللغة نفسه كان فتحاً عظيماً في عملية تقعيد النحو ؛ إذْ أنَّ هذه المادة الضخمة المجموعة أثارت فضول العلماء بالوقوف عندها ومعرفة قوانين ائتلافها وانسياقها على هذا النمط المثير للإعجاب . وعليه نقول : إنَّ جمع اللغة من الدوافع الخفية التي أدَّتْ إلى تقعيد القواعد النحوية .

سابعاً : حاجة الأعاجم لهذا الصنيع :

إنَّ الأعاجم قد عانوا من لكنة ألسنتهم وركاكة نطقهم للعربية ؛ لأنها فتحت عليهم باب السخرية والتهكم على مصراعيه من قبل العرب ، فأرادوا التخلص من ذلك بوضع قانون يمكن من خلاله التدرب على النطق السليم ، ومراقبة العرب الفصحاء ، وتتبعهم على نحو ما دار بين عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي والفرزدق .[3] ولعلَّ هذا يبرر ويفسر كثرة النحاة الأعاجم ، وهذا ـ كذلك ـ من الدوافع الخفية التي ساعدت على وضع العربية .

ثامناً : علو الهمة وحب المعرفة :

إنَّ علو الهمة وحب المعرفة جناحين طار بهما الكثير من النحاة نحو سماء النحو العربي ، ونماذج ذلك كثيرة ولكنني سأكتفي بذكر سيبويه عندما كان في أوَّل أمره ملتحقاً بإحدى حلقات الحديث فتحوَّل منها إلى علم النحو العربي ويبدو أنه والله تعالى أعلم كان يلاحظ لكلام العرب وتوصل من ملاحظته المتكررة لبعض القواعد في ذهنه وفي هذا دليل على حبه للمعرفة وقصته كما رُويتْ على النحو التالي : "وذكر نصر بن علي قال كان سيبويه يستملي على حماد فقال حماد يوماً قال رسول الله صلى الله عليه: ما أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء. فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء: فقال حماد: لحنت يا سيبويه. فقال سيبويه لا جرم لأطلبن علماً لا تلحنني فيه أبداً. فطلب النحو ولزم الخليل".[3] إذن علو الهمة وحب المعرفة دافعانِ دفعا بسيبويه للانخراط في وضع النحو العربي وعليه يمكن أنْ نعد ذلك من الدوافع الخفية التي أدَّتْ إلى تقعيد القواعد النحوية .

تاسعاً : طلب المال والشهرة :

يبدو هذا الدافع غريباً لكوننا نصف به بعض أولئكم الرجال الذين غلب على وصفهم ـ في كتب التراجم ـ الزهد والورع والتقوى كالخليل وأبي عمرو بن العلاء وغيرهما كثير ، ولكن الحقيقة العلمية أكبر من أنْ يُجامل بها عالم أو يحفظ بها وجه مفكر . ولعلَّ ما دفعني لصياغة هذا الدافع ما أوردتْهُ بعضُ المصادر في شأن رجل لعب دوراً كبيراً في عجلة النحو العربي ألا وهو الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة ولا أحد يستطيع أنْ ينكر دوره في وضع النحو العربي خصوصاً أنَّ هذا الرجل له آراء خالف بها أبناء مذهبه ، هذه الآراء هي التي استفاد منها الكوفيون وعليها استندوا في بناء مذهبهم الجديد الذي قام متأخرا عن المذهب البصري بنحو مائة عام . كماعُرفَ كتاب سيبويه عن طريق الأخفش الأوسط ، وهو من ناظر الخليل إلا أنَّه غُلب من قبل الخليل .[6] أوردتُ كل هذه الحقائق عن الأخفش الأوسط لأثبت باعه في عجلة التقعيد النحوي ، أمَّا فيما يتعلق بكونه يضع ما يضع من قواعد نحوية ويؤلف ما يؤلف من كتب بغية الشهرة والمال فليس ذلك تجني عليه وإنما استندتُ على ما رواه أنداده وتلاميذه من أمره ومن ذلك ما ورد في كتاب نزهة الألباء أنه الطريق إلى كتاب سيبويه؛ لأنا لم نعلم أحداً قرأه على سيبويه، وما قرأه سيبويه على أحد؛ وإنما لما توفي سيبويه قرئ الكتاب على أبي الحسن الأخفش. وكان ممن قرأه عليه أبو عمر الجرمي وأبو عثمان المازني . ويقال: إن أبا الحسن الأخفش لما رأى أن كتاب سيبويه لا نظير له في حسنه وصحته، وأنه جامع لأصول النحو وفروعه استحسنه كل الاستحسان ، فيقال : إنَّ أبا عمر الجرمي وأبا عثمان المازني – وكانا رفيقين – توهما أن أبا الحسن الأخفش قد هم أن يدّعيَ الكتاب لنفسه، فقال أحدهما للآخر: كيف السبيل إلى إظهار الكتاب ومنع الأخفش من ادعائه؟ فقال له : نقرؤه عليه ، فإذا قرأناه عليه أظهرناه وأشعنا أنَّه لسيبويه فلا يمكنه أن يدعيه . وكان أبو عمر الجرمي موسراً وأبو عثمان المازني معسراً، فأرغب أبو عمر الجرمي أبا الحسن الأخفش، وبذل له شيئاً من المال على أنْ يقرئه وأبا عثمان المازني الكتاب، فأجاب إلى ذلك، وشرعا في القراءة عليه ، وأخذا الكتاب عنه ،

وأظهرا أنَّه لسيبويه وأشاعا ذلك، فلم يمكنا أبا الحسن أنَّ يدعي الكتاب، فكانا السبب في إظهار أنه لسيبويه، ولم يسند كتاب سيبويه إلا بطريق الأخفش ، فإنَّ كلَّ الطرق تستند إليه.[21] وهذا يؤكد أنَّ الأخفش الأوسط يختلف في طبعه عن سائر النحاة . وقد ورد في معجم الأدباء أنَّ أبا حاتم قال : "أخذ الأخفش كتاب أبي عبيدة في القرآن فأسقط شيئا وزاد شيئا، وجعله لنفسه، وقال: الكتاب لمن أصلحه، وليس الكتاب لمن أفسده"[21] فاتهامه بتلك التهم تسوق لنا أن نجعل طلب المال والشهرة أحد الدوافع الخفية التي حملت بعض النحاة إلى تأليف المصنفات العلمية ووضع القواعد النحوية . ونتيجة لتلك الأسباب والدوافع احترم السلفُ اللغةَ العربيةَ ، فوضعوا تلك المادة المجموعة نصب أعينهم ، وحكَّموا فيها عقولهم فاخذوا ينظرون في طبيعة العلائق بين عناصر الجملة ، ويضعون ملاحظاتهم في قوالب تتسم بالنظام ويسودها المنطق ، فَقُعِّدَ علم النحو العربي .

الخاتمة :لتلك الأسباب والدوافع أو لغيرها تمَّ وضع النحو العربي ، وعليه فإنَّنا توصلنا من خلال هذه الورقة إلى عدة نتائج وهي على ما يلي :

1. تنوعتْ الأسباب وتباينتْ الدوافع حول وضع النحو العربي .
2. اللَّحن هو أكبر الأسباب التي أدَّتْ إلى وضع النحو العربي .
3. المادة اللُّغوية التي جُمعتْ من بوادي نجد والحجاز وتهامة هي أقوى الدوافع التي دفعتْ بالنحاة إلى تقعيد القواعد النحوية ويلي هذا الدافع رقي العقل العربيّ .
4. العصبية العربية صفة اكتسبتها العرب من الإبل .
5. ازدراء العرب للأعاجم وتعصب العرب للغتهم صفتان متناقضتان ولكنهما عملتا جنباً لجنب في خدمة النحو العربي .

المصادر و المراجع :

1. القرآن الكريم .
2. أبو الربيع سليمان بن بنين ، (1985م) ، اتفاق المباني وافتراق المعاني ، دار عمان ـ الأردن ، ط1 ، ، ص125 .
3. السيرافي أبو سعيد الحسن بن عبد الله المزربان ، (1966م) ، أخبار النحويين البصريين ، تحقيق طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي ومصطفى البابي الحلبي ، بلا م ن ، بدون ط ، ج3 ، ص(22،35) .
4. الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر ، (1423هـ) ، البيان والتبيين ، دار ومكتبة هلال ، بيروت ، بدون ط ، ج1 ، ص136 ، ج2 ، ص(151 ،136،143،150) .
5. توفيق برو ،(2001م) ، تاريخ العرب القديم ، دار الفكر ، بلا م ن ، ط2 ، ، ص38.
6. التنوخي أبو الحسن المفصل بن محمد ، (1992م) ، تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، هجر للطباعة والنشر ،القاهرة ، بدون ط ، ص 85 .
7. عبد العال سلام مكرم ، (1413هـ) ، الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط2 ، ، ص286.
8. ابن جني أبو الفتح عثمان ، (بدون تاريخ) ، الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، عالم الكتب ، بيروت ، بدون ط ، ج2 ، ص8 ، ج3 ، ص (246 ، 303).
9. الألباني محمد ناصر الدين ، (بدون تاريخ) ، السلسلة الضعيفة ، مكتبة العارف ، الرياض ، بدون ط ، ج2 ، ص315 .
10. ابن إسحق محمد بن يسار ، (1978م) ، سيرة ابن إسحق (كتاب السيرة والمغازي) ، تحقيق زهير زكار ، دار الفكر ، بيروت ، ط1 ، ص51 .
11. سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، (1988م) ، الكتاب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط3 ، ج2 ، ص35 .
12. الخليل عبد الرحمن بن أحمد الفراهيدي ، (بدون تاريخ) ، كتاب العين ، ، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السمرائي ، دار ومكتبة هلال ، بغداد ، بدون ط ، ج1 ، ص53 .

13. أبو الطيب اللُّغوي ، (2003م) ، كتاب مراتب النحويين ، ، تقديم وتعليق محمد زينهم محمد عزب ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، بدون ط ، ص15 .
14. المبرد أبو العباس محمد بن يزيد ، (1997م) ، الكامل في اللُّغة والأدب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط3 ، ج1 ، ص11 .
15. ابن منظور محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل ، (1414هـ) ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط3 ، ، ج13 ، ص379 ، مادة (لحن) .
16. شوقي ضيف ، (بدون تاريخ) ، المدارس النحوية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط9 ، ص12.
17. السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين ، (1998م) ،المزهر في علوم اللُّغة وأنواعها ، تحقيق فؤاد علي منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، ج1 ، ص(61 ،114) .

18. أبو عبد الله القاضي محمد بن سلامة بن جعفر ، (1986م) ، مسند الشهاب ، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط2 ، ج1 ، ص388 .
19. الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد ،(1415هـ) ، المعجم الأوسط ، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ، دار الحرمين ، القاهرة ، بدون ط ، ج7 ، ص183 ، مادة (لحن) .
20. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، (2006م) ، مقدمة ابن خلدون ، ضبط وشرح وتقديم محمد الإسكندراني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ـ لبنان ، بدون ط ، ص130 .
21. ابن الأنباري عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ، (1985م) ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تحقيق إبراهيم السمرائي ، مكتبة المنار ، الزرقاء . الأردن ، ط3 ، ص (25 ، 180) .
22. الطنطاوي الشيخ محمد ، (2005م) ، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، مكتبة إحياء التراث الإسلامي ، بلا م ن ، ط1 ، ص18 .